مالتوس
ومشاكل السكان في العالم

للأستاذ فؤاد طرزي

لم يثر أي كتاب من الكتب ضجة كالضجة التي أثارها كتاب توماس مالتوس (بحث في نظرية السكان) الذي صدر في سنة ١٧٩٨ في منتصف فترة النهضة التي تسمى نهضة « الزيادة الكبرى » في مجموع السكان وفي بلاد إزداد عدد سكانها زيادة سريعة لم تدانها أية زيادة من الزيادات التي حصلت في بلدان القارة الأوربية الأخرى . فقبل هذه النهضة بـ ١٥٠ سنة كان سكان القارة الاوربية يبلغون قرابة الـ ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ولكن بعد النهضة بـ ١٥٠ سنة أخرى واجهت شعوب أوروبا مشكلة ابتداء حصول نقصان في مجموع السكان . ولكن في سنة ١٧٩٨ ، عندما أخذ يتضاءف عدد سكان القارة الأوربية الذي يبلغ الـ ١٨٧٫٠٠٠٫٠٠٠ — على الرغم من ارتفاع عدد المهاجرين الذي بلغ ٥٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ — اكتسبت نظرية مالتوس التي سماها نظرية زيادة السكان أهمية عريضة .

في عام ١٦٥٠ كان تعداد سكان العالم يقارب ٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ، ثم بلغ هذا التعداد في سنة ١٩٤٠ بليونين ، وقد حصل نصف بليون من هذه الزيادة خلال المائة سنة بين ١٦٥٠ و١٧٥٠ ، في حين حصلت زيادة البليون الآخر في السنوات التي تلت ذلك . وبذلك ازداد في ٣٠٠ سنة عدد الأوربيين — الذين يدخل فيهم السلالات المتعددة النفية التي تعيش في الخارج — زيادة تبلغ السبعة أضعاف ، وهكذا ، ومع مرور الزمن فقدت ظاهرة الزيادة — كما كتب لنكزلي دافيس — شبيهة بسلك رفيع يحترق ببطء وتستر ، إلى أن أدرك الاحتراق نهايته فانفجر . ولعل أبرز مظهر لظاهرة زيادة السكان في الغرب — وهي الظاهرة التي أطلقنا عليها اسم نهضة « الزيادة الكبرى » في مجموع السكان — تتبدى في إزدياد عدد نفوس الشعوب الناطقة بالإنجليزية . فقد كان تعداد هذه الشعوب يبلغ ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ في عام ١٦٠٠ فتضاعف إلى ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ في عام ١٩٤٠ . وفي المائة سنة الأخيرة من التاريخ التقويمي إزداد عدد سكان الجزر البريطانية نحو أربعة أضعاف ما كان عليه ، هذا بالإضافة إلى أن أكثر من ١٧٫٥٠٠٫٠٠٠ قد هاجروا من هذه الجزر إلى أميركا الشمالية ودومنيونات ما وراء البحار .

ويرى العلماء المحدثون أن مالتوس قد وجه نشاطه مبدئياً ، في الطبعة الأولى من رسالته ، نحو دراسة مشكلة الفقر ، وإن مسألة السكان كانت ثانوية في آرائه . فقد أراد أن يدرس طبيعة الفقر كما انكب آدم سمث على دراسة طبيعة الثروة ؛ إلا أنه وضع رسالته يرد بها على وليم كودوين والتلاميذ الاشتراكيين مستهدفاً إثارة المحافظين الدينيين والاشتراكيين المتطرفين في آن واحد . وكتب مؤرخ حياته جيمس بونار يقول : « لقد غدا مالتوس من بعد ثلاثين سنة أمطر خلالها الناس سيلا من الأخطاء أعظم شرير في عصره ، وأصبح إنساناً يدافع عن الجدري وعن العبودية وعن قتل الأطفال وعن إلغاء الزواج المبكر ، إنساناً بلغت به الوقاحة أن يتزوج بعد إلقائه وعظاً يبين فيه مساوىء العائلة ، إنساناً ظن أن العالم بمجموعه سلسلة ظواهر تحكمها عوامل الشر حكماً يدفع إلى الاعتقاد بأن خير الأعمال هي ما كانت أكثرها إيذاء . ولم يقدم مالتوس — باعتباره شارحاً لأسباب الفقر — أجوبة مقنعة تتفوق في شمولها وقناعتها على تلك الأجوبة التي وضعها بعض المتعمقين من ذوي العقول الجامدة كهنري وجورج وكارل ماركس . وإن نظريته التاريخية التي نقحها في الطبعة السادسة لرسالته هي أكبر ما قدمه » .

قرر مالتوس بأن نسبة الزيادة بين السكان تفوق نسبة الزيادة في المواد الغذائية ، ولذلك — إذا لم تضبط هاتين النسبتين عند حد متوازن واحد — فستجتاح الإنسانية المصائب والكوارث والنكبات والآلام . وقد أفرغ نظريته في قانونه المشهور : تجري زيادة السكان على شكل متوالية هندسية — بهذه الصورة ٢ و٤ و٨ و١٦ و٣٢ ... الخ — وتجري زيادة المواد الغذائية على شكل متوالية حسابية — بهذه الصور ١ و٢ و٣ و٤ و٥ ... الخ — فإذا لم تضف أراض جديدة كما يقول مالتوس فسوف لا يستطيع أي شعب في العالم أن ينتج من المواد الغذائية صعوباً إلا ما كان

بنتجه فى السنة السابقة ، فى حين أن عدد السكان — كما ظهر فى أميركا — يزداد زيادات متضاعفة من جيل إلى جيل ، ولذلك فإن زيادة السكان لا تسير فى مستوى واحد مع إنتاج المواد الغذائية إلا بوجود تحديدات معينة ، وإن التحديد الحاسم بين هذه التحديدات هو المجاعة التى تعتبر الضابط الذى يوقف ازدياد السكان . وعلى ذلك فإن هناك تحديدات أخرى من الممكن أن يظهر مفعولها قبل ظهور فعل هذا التحديد ، وهى الفقر والحرب وسوء التغذية والفجور . كما أن تقييد الزواج من الوسائل الرئيسية المعينة على التهرب من مثل هذه النتائج المخيفة . وكل مشروع يوضع لإنشاء مجتمع أصلح ولتحقيق حاجات أكبر يستهدف إضعاف مفعول هذا القيد — تقييد الزواج — لا ينجح إلا فى تقوية الجراثيم التى تنخر كل قلب الإنسانية .

إن العلماء يميلون اليوم إلى تجنب المناقشات التى لا طائل تحتها بتوجيه سؤال واحد ، هو : كيف يمكن لفروض مالتوس أن تصاغ بشكل تثبت فيه لاختبارات الباحثين فى منشأ كل زيادة السكان . ويقول هؤلاء العلماء : دعنا نفترض حصول زيادة كبيرة فى السكان أعقبها هبوط فى استهلاك الأغذية ، وإن ارتفاع معدل الوفيات أدى فى النهاية إلى المجاعة . ففى هذا الفرض — حسب نظرية مالتوس — يجب أن يكون العلاج الوحيد تقليل نسب الزواج بدرجة كافية للتقليل من نسب الاخصاب البشرى . ولكننا إذا ما أخضعنا هذا التقدير الافتراضى إلى حقائق علم السكان نجد — باستثناء حالات الحرب — أن شعباً واحداً فقط من بين شعوب أوروبا قد انطبقت عليه تنبؤات مالتوس وهو الشعب اليهودى . وبتعقب فترة المائة والخمسين سنة التالية لعهد مالتوس ظهر لعلماء السكان بأن هذا الباحث قد عاش فى مرحلة خاصة من مراحل التطور الإنسانى . ومن طريق المصادر العلمية المادية وتقدم الوسائل الاحصائية والرياضية وتطور أساليب إحصاء النفوس يستطيع هؤلاء العلماء أن يحللوا هذه المراحل ليكتشفوا التغيرات الأساسية فى نسب الوفيات والولادات التى تخلقها ، وبذلك تستطيع هذه التحليلات والدراسات أن تعينهم على إعداد العدة للمستقبل . ومن هنا يظهر أن أغلب أساليب التحليل والاحصاء الحديثة قد استخدمت لإصلاح عمل هذا الباحث الذى مر من روح العصر الذى كان يعيش فيه

ونحن نعلم علماً تاماً — بعد أن ندع جانبا التطورات التى تعود فى أصلها إلى ظروف الحرب — بأن معدل الوفيات قد استمر فى هبوطه منذ زمن مالتوس كما نعلم بأن ارتفاع معدل الأعمار لا ارتفاع معدل الولادات هو الذى سبب هذه الحركة فى مسائل السكان وهى الحركة التى دفعت مالتوس دفعاً مباشراً لصياغة نظريته . وكان لكارساندوس فضل الكشف عن هذا الهبوط فى معدل الوفيات الذى بدت ظواهره فى انجلترة حوالى ١٧٣٠ فى السنة التى ولد فيها أكبر معمر فى عصر مالتوس . ولقد أبان هذا الباحث أن المعدل قد هبط من ٣٥ فى الألف إلى ٢٢ فى الألف فى عام ١٨٣٠ ، أى بعد ثلاث سنين من إخراج مالتوس الطبعة الخامسة من رسالته . ثم مرت بعد ذلك مائة وأربعون سنة أخرى قبل أن تبدو بوادر هبوط فى معدل الولادات عام ١٨٨٠ يعادل الهبوط الذى طرأ على معدل الوفيات فى انجلترة حوالى ١٧٤٠ . وظلت الوفيات تتناقص إلى أن بلغت ١٠ فى الألف فى العقد الأول من هذا القرن ، وظلت تتزايد نسبة الولادات خلال الستين سنة التالية . ويعود سبب ذلك لحد كبير إلى الفرق الكبير بين المعدلين .

ولقد كان من نتيجة التطورات العظيمة فى العلوم الطبية والصحية وفى الشئون الاجتماعية العملية إنقاذ نفوس كثيرة ، ثم تعلم ذلك فى عام ١٧٥٠ بقيام الفلاحين بزرع أرضهم زروعاً زودتهم بالخضروات واللحم الطازج بدلا من تركها بوراً فى الشتاء ، كما وفر استعمال القطن بعد ذلك للطبقات العامة منسوجات رخيصة فازداد هبوط معدل الوفيات .

إن مشكلة السكان التى شغلت مالتوس خاصة ، مشكلة إطعام الشعب الإنجليزى الذى يتزايد عدده مع بقاء جزيرته كما هى من حيث المساحة . هذه المشكلة قد حلت — كما يقول هارولد رايت (١) بعد بضع مئات من السنين بنتيجة الزيادة الهائلة التى حصلت فى إنتاج البضائع المصنوعة ومبادلتها بالأغذية والمواد الخام المنتجة فى القارات الجديدة . فكلما ازدادت النفوس أصبح الغذاء أرخص لازدياد المهاجرين الذين ينتجون الأغذية

(١) كتاب السكان طبعة نيورك ١٩٢٣ ص ٣٣

في الخارج وازدياد العاملين الذين انتشروا في أوروبا عند استعمال الماكينة الزراعية والبواخر والقاطرات وهي الوسائل التي ساعدت على إنتاج الأغذية ونقلها من مكانها إلى محلات استهلاكها . فالثورة الصناعية قد قضت على أزمات السكان طوال مدة بلغت المائة عام .

وتزايد هذه الوسائل الجديدة مكن أوروبا من إنشاء شعب صناعي كثيف لم تكن تحلم باستطاعتها إعاشته . ولكي لا نقسط كل حق لمالتوس يجب أن نشير إلى أنه قد تنبأ بهذه الإمكانيات ولو كان تنبؤه مشوباً باليأس كما يظهر من الملاحظة التالية الواردة في رسالته .

« وقد نفرض ، ونحن في غمرة التأملات الشاردة المجدبة ، أن أوروبا يجب أن تنمي حبوبها في انجلترة وأن تكرس نفسها تكريساً تاماً للصناعة والتجارة وتصبح أحسن آلة عاملة على سطح الكرة الأرضية . ولكن حتى إذا ما جارينا المفترضين في مبالغاتهم وقلنا بأن طبيعة الأشياء ستنتهي بجعل أوروبا آلة عاملة من النوع الذي يفترضونه ، وإنها ستوفر إمكانيات تستطيع بواسطتها هذه القارة أن تزيد نفوسها زيادة تتجاوز مساحة أراضيها ، إلا أنه مع ذلك ستكون النتائج مؤلمة إيلاماً كبيرا ، إذ أن الحقيقة التي لا يصح نكرانها تتطلب أن يقوم كل أقليم ، حسب إمكانياته الطبيعية وقدرته على خلق الثروة ، بالإنتاج لنفسه فما العمل إذن عند ما تبدأ أمريكا — بمقتضى هذه الظاهرة — بسحب حبوبها من أوروبا لتكفي نفسها ، وحين تصبح المنتجات الزراعية الأوربية غير كافية لسد النقص الذي تحس به ؟ لا شك أنه سيبدو حينذاك بأن الفوائد الوقتية المتحصلة من زيادة نسب الثروة والسكان قد كانت غالياً ودفعت إلى مقاساة فترة طويلة عامرة بالآلام والمتاعب[1] .

ومع أن الثورة الصناعية قد وقت أوروبا من أخطار ازدياد السكان ، إلا أنها لم تعمل تعديلا أساسياً تحدى مالتوس ، ولذلك فإنه حين ابتدأت حركات الموازنة اتخذت الأسلوب الذي دعا إليه — اطراد هبوط معدل الولادات — ولو أنها لم تتشكل بالشكل الذي تنبأ به . فإن معدل الزواج ظل في منطقة واحدة مرتفعاً — في الروسيا — أما شعوب المدنية الغربية فقد تجنبت أزمات السكان بالإشراف على الولادات عن طريق وسائل التحديدات العائلية . فإذا ما قلنا بأنه قد تخلل عصر نمو السكان هبوط معدل الوفيات فيجب أن نعترف بأن هبوط معدل الولادات قد كان جزءاً مضادا .

فقد كان واضحاً منذ عام ١٨٥٠ بأن معدل الولادات قد هبط في فرنسا والولايات المتحدة وإيرلندا ، كما كانت الدلائل تدل على أن الزيادة الهائلة التي طرأت على الولادات في أميركا قد ابتدأت في الهبوط ثانية منذ الإحصاء الأول عام ١٧٩٠ . فبين عام ١٨٤٧ وعام ١٩١٤ هبط معدل الولادات في فرنسا من ٢٧ في الألف إلى ١٩ ، وهبط خلال الحرب العالمية الأولى إلى ١١ في الألف ثم استأنف بعد ذلك الهبوط بعد ارتفاع وقتي . وقد اشتد هذا الهبوط ، مع بعض التغيير حيناً ، أو مع عدمه في حين آخر ، في العصر الذي يسمى عصر الزواج ، ويعزى سبب هذا الاشتداد إلى تحديد الولادات داخل العائلة ، إذ المعروف أن عمليات تقليص حجم العائلة قد استمرت في فرنسا ، ثم انتشرت من هذه البلاد إلى شعوب أوروبا الغربية .

وأما في انجلترا فإن معدل الولادات قد وصل إلى درجة عالية عام ١٨٥٠ ، إلا أنه من عام ١٨٨٠ أخذ يعاني هبوطاً مستمراً . وفي خلال فترة قصيرة أمدها ستون سنة (بين ١٨٧٠ و١٩٣٠) هبط هذا المعدل من ٣٥ في الألف إلى ١٥ . وقد كان لهذا الهبوط أثر كبير على الحياة الإنجليزية .

فكيف إذن فشل مالتوس في التنبؤ بإمكانية هذا التقلص في حجم العائلة الذي يعتبر أعظم انقلاب في شؤون السكان في العالم الحديث ؟ لقد ظهر لأغلب المفكرين الأحرار بأن مالتوس كان يخدم جبهتين مختلفتين : جبهة المستغلين ، وجبهة ذوي السلطة . واكتشف العالم الألماني هانس ميوهوف بأن أعمال مالتوس قد تأثرت بدفاعه عن التقاليد ، كما أن العالم جيمس فيلد قد وصل بعد دراسة دقيقة إلى نتيجة أثبت فيها بأن مالتوس كان مطلعاً على الدعاية الموجهة لتحديد الولادات في زمانه ، ولذلك عارض بقوة كل تدبير طبيعي لتحديد حجم العائلة . .

(١) ف . ع مالتوس (بحث في السكان) الطبعة السابعة المجلد ٢ ص ١١ . مجلدات مكتبة الجيب .

ولعل هذا الدفاع عن التقاليد الأرثوذكسية — والذى دفع علماء السكان إلى أن يسموا صاحبه « البارسون مالتوس » قد جعل من منافسيه من أمثال فرانسيس بلاس وريشارد كارليك وروبرت ديل والدكتور جارلس نولتون أقدر منه فى معالجة الفروض العلمية

إن الضرورات تقتضى — حسب نظرية مالتوس — أن يكون الزوج قادراً على إعالة زوجة وستة أطفال ، أما علماء السكان فى الوقت الحاضر فيقولون إن إنجاب العائلة ثلاثة أطفال يكفى لاستقرار السكان ، بينما يؤدى إنجاب كل عائلة ستة أطفال إلى مضاعفة السكان من جيل إلى جيل . وليس هناك من يشك فى إخلاص مالتوس فى دفاعه عن الضابط المنوى ، ولكننا يجب أن نشير فى مقابل ذلك إلى أن الكتاب والمصلحين فى أيامه قرروا ما يقرره اليوم كثير من رجال الدين وعلماء التشريع وقادة الاجتماع بأنه إذا ما أراد المجتمع أن يجعل من الاتصال الجنسى قيمة سامية ؛ فالزواج المبكر خير معوان على ذلك .

ويبدو أن تاريخ الشعب الإيرلندى خير تصوير محزن لفرضية مالتوس ، وهو الشعب الذى كانت المجاعة أكبر آفة أصابته ؛ ففى سنة ١٦١٠ ابتدأ السير والتر راليه يزرع بذور البطاطس المستوردة من أمريكا فى مزرعته ، وبعد مضى جيلين أصبحت البطاطس الغذاء الرئيسى فى إيرلندا . وكان الفرد يزود بهذا المصدر الغذائى الجديد ، فيتزوج شاباً ثم ينمو بسرعة . ولذلك أخذ عدد السكان يتضاعف ابتداء من عام ١٨٤٩ إلى أن بلغ هذا التضاعف أوجه عندما صار تعداد السكان ٠٠٠ر ٣٠٠ ر ٨ . وقد جاء فى كتاب السير جيمس كونور « تاريخ إيرلندا » ما يلى : « لقد شجع المسلك الدينى الزيجات المبكرة ، وشجعت السياسة الإيرلندية الزيجات المبكرة كذلك ، وأدى هذا التشجيع المزدوج إلى حصول زيادة سريعة فى السكان . ولكن ظل ما يقارب الثلاثة ملايين والنصف من النفوس ملمومين فى أكواخ موحلة منطاة بالقش ، كل كوخ يتكون من غرفة واحدة بلا نافذة ولا منفذ . وفى عام ١٨٤٤ ظهرت فى أميركا الآفة النباتية التى تعطن البطاطس خلال بضعة أيام .

وفى صيف ١٨٤٦ اجتاحت هذه الآفة إيرلندا كالوباء الأسود وأهلكت المؤن الغذائية التى يعيش عليها الفلاحون ؛ ومات خلال خمس سنين بين ١٨٤٦ و ١٨٥١ حوالى ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١ شخص . وكان من نتيجة ذلك فيضان هجرة كبيرة من إيرلندا فغادرها خلال عقد واحد ربع السكان متوجهين إلى الولايات المتحدة . ثم أخذ عدد المهاجرين فى التزايد حتى بلغ فى ظرف جيلين ٠ ٠ ر ٠٠٠ ر ٥ ولكن الإيرلنديين جابهوا الموقف بإيقاف الزواج أو تركه . ويصعب علينا قياس معدل الولادات فى إيرلندا إلا فيما يتعلق بفترة منتصف القرن التاسع عشر ، ولكن كارساندرس قال إن هذا المعدل ربما كان حوالى الأربعين فى الألف عام ١٨٥٠ ثم أخذ فى الهبوط بعد فترة قصيرة من هذا التاريخ فصار ٦٢٢ بالألف بين عامى ١٨٧١ و ١٨٨١ ، و ٢١٢ بالألف بين عامى ١٩١٠ ١٩٢٦ . وخلال هذه الفترة ازداد معدل نسبة النساء الإيرلنديات غير المتزوجات من اللواتى تتراوح أعمارهن بين الـ ٢٥ و ٣٥ من ٢٨ فى المائة فى عام ١٨٤١ إلى ٥٢ فى المائة فى عام ١٩٢٦ . ولا شك أن ترك الزواج بالنسبة لشعب بأكمله فترة طويلة يعنى بالطبع أن عدداً كبيراً سيتركون الزواج نهائياً .

ففى عام ١٨٤١ كان ١٥ بالمائة من النساء الإيرلنديات بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين غير متزوجات . وفى عام ١٩٢٦ ارتفع هذا المعدل إلى ٢٩ بالمائة . وهكذا ، فإن ثلاثة أعشار النساء الإيرلنديات يعشن بلا زواج . وأما بالنسبة لأولئك اللواتى تزوجن فإن معدل الولادات بقى بينهن عالياً . وفى عام ١٨٦١ كان يوجد لكل ١٠٠ امرأة إيرلندية متزوجة من اللواتى دون الخامسة والأربعين ١٣٠ طفلا دون الخامسة . وفى عام ١٨٢٦ كان العدد المماثل ١٣٠ طفلا أيضاً . ويقابل ذلك فى انجلترا وفى نفس الفترة هبوط المعدل من ١٠٠ طفل لكل امرأة متزوجة إلى ٧١ وقد استقر الآن عدد سكان إيرلندا حوالى ٠٠٠ ر ٣٠٠ ر ٤ نسمة أى ما يقارب نصف العدد الذى كان عليه عدد النفوس قبل المجاعة . ولهذا السبب نجد أن عدد المنخرطين فى السلك الدينى فى إيرلندا يفوق أى عدد مماثل له فى العالم الغربى إذا لم نقل فى العالم كله . فقد جندت هذه البلاد أبناءها فى سلك الرهبنة ليخدموا الكنيسة الكاثوليكية فى كافة أنحاء العالم . ولكننا إذا عدنا إلى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وجدنا أنه لم يحدث فى هذه البلدان إلا هبوط قليل فى نسبة الأفراد المتزوجين ؛ ولذلك نرى الكنيسة الكاثوليكية